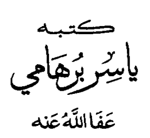
قصة صاحب الجنتين







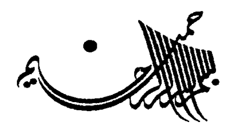


رقم الإيداع	٢٤٢٢٤ / ٢٠٠٦

دار الخلفاء الراشدين
ج. م. ع - الإسكندرية - حي الرمل
ش منشية الزهراء - أبو سليمان
٠١٠٦٧١٤٧٦٨/٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٥٠١٣١٥١/٠١٠٧٣٨٢٧٨٢

الشركة الفنية للطباعة
ت: ٧٧٧١٠٣٩



مُقَدِّمَة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم أما بعد :



فإن الله قص علينا في كتابه قصصًا للعظة والاعتبار والتثبيت على الهدى ، وجعل الله ﷻ قصص القرآن أحسن القصص وبين فيه العقيدة الصحيحة ومعاني الإيمان ، وبين فيه أمور السلوك والعبادة الواجبة ، وما ينبغي أن يكون عليه المرء في حياته ، وفيما يختلف فيه مع غيره من الناس ، لذلك كانت مُدَارسة قصص القرآن من أعظم أسباب زيادة الإيمان ، والله المستعان .

فوائد في ضوء القصة

وقصة صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن قصة عظيمة فيها من الفوائد والعظات ما يعجز المرء عن الإحاطة به ، ولكن نشير إلى طائفة من هذه الفوائد نسأل الله ﷻ أن ينفعنا بها .

قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾

وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن
تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا
﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن
تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ
أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ
بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ
مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾
[الكهف : ٣٢-٤٤] .

الأمثال في القرآن

أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يضرب مثلا للمتكبرين من قريش وأمثالهم ممن شابههم عبر الأزمان الذين تكبروا عن مجالسة الضعفاء والفقراء ، وقالوا : اطرد هؤلاء كي نجلس معك ونسمع إليك ، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، وأنزل قوله ﷻ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فإذا كان رسول الله ﷺ مأموراً بأن يصبر نفسه مع من استجابوا لدعوته ، وهم تلامذته ، وهم ـ بلا شك ـ أقل منه منزلة ودرجة عند الله ﷻ ، وهو أفضل الخلق على الإطلاق وأعلى الناس منزلة عند الله ، ومع ذلك كان مأموراً بأن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم

بالغداة والعشي ، فأولى بذلك كلُّ مؤمن عبر العصور وفي مختلف الأمكنة ، لابد أن يكون مع إخوة الإيمان ومع طائفة الحق التي جعلها الله ظاهرة منصورة ، وألا يبتعد عنهم .

وأمر الله ﷻ نبيه عقب ذلك أن يضرب لهم مثلاً ليتعظوا ، مثَلَ هذين الرجلين : صاحبِ الجنتين وصاحبِه اللذين وقع بينهما هذا الحوار ، وكان من الرجل المتكبر ما كان ثم كانت عاقبته ما أخبر الله ﷻ ، أما الذين نزلت في شأنهم هذه الآيات فلنتأملِ في عاقبتهم لنعلم نهاية المطاف دائماً .

وسورة الكهف من أوائل ما نزل من القرآن ، « قَالَ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ : فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ إِنَّهُنَّ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ »[1] ، كان الإسلام في ذلك الوقت لا يجد أرضاً يُمَكَّن له فيها ، ولم يجد المستضعفون مكانًا يؤويهم ، وكان المتكبرون في غاية تجبرهم وطغيانهم ، وجاءت الآيات تبيّن

(١) رواه البخاري (٤٧٠٨) .

عاقبة الرجل المؤمن وعاقبة الرجل الكافر المتكبر بماله ، ومنزلته وكثرة ولده وحشمه وأتباعه ، وكانت العاقبة لهؤلاء الذين ضُرِب لهم المثل كذلك ، فانظر إلى موضع بلال ﷺ ، وموضع المستضعفين من المسلمين بمكة ، كبلال وصهيب وعمار ، وغيرهم - رضي الله عنهم - صاروا في أعلى المنازل عند الله ، وصار من يخالفهم ويتكبر عليهم كأمية بن خلف ، وأبي جهل ابن هشام ، وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، والوليد بن المغيرة ، وأمثال هؤلاء ، كل هؤلاء أين صاروا ؟ كيف كان حالهم ؟ وكيف صار مآلهم ؟ نعلم إذن أن حقيقة الأمر ليست فيما يبدو للناس من كثرة مال وجاه ورئاسة ومنزلة عند الخلق ، وإنما الأمر بمقدار ما في القلوب من الإيمان ، وعاقبة الأمر تكون دائمًا كما قال الله ﷻ .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ تأمل في قول الله ﷻ ﴿ جَعَلْنَا ﴾ لتعلم أن الله يجعل الدنيا للمؤمنين وللكافرين ، للبر وللفاجر ، هو الذي يجعل ،

لم يقل عنه " كان له جنتان " مثلًا ، بل قال ﴿ جَعَلْنَا ﴾ لكي نستحضر أن الله هو الذي يعطي ، وأن الله هو الذي يهب ، وأن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن يكره ، ولكنه لا يعطي الدين إلا لمن يحب ، فالله ﷻ جعل الإيمان في قلب من ليست عنده الدنيا ، وجعل المال والمنزلة في يد من ليس في قلبه إيمان ، فانظر إلى هذا القَسْم ، وهي قسمة عادلة من العليم الحكيم ﷻ ، لا تظن أن ما بأيدي الناس قد اكتسبوه بأنفسهم من غير أمر من الله ﷻ وجَعْل منه ﷻ ، بل الله الذي جعل الغني غنيًا ، وجعل الفقير فقيرًا ، وجعل المتوسط متوسطًا في الرزق ، كل ذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعلمه ﷻ ، ولذلك لا يغرنَّك ما بأيدي الناس ، كان من الممكن أن يقع غير ذلك ، وفي قدرته سبحانه وتعالى أن يجعل كل إنسان بضد ما هو عليه ، ولكنه قدر كل ذلك بعلمه وحكمته ، ولنستحضر في مثل هذا الموقف قول موسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا

لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] ، لم يقل موسى " إن فرعون عنده " ، وإنما قال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، لنستحضر ذلك في كل صراع يجري بيننا وبين أهل الكفر والنفاق والظلم والباطل الذين جعل الله لهم مالًا أو سلطانًا أو رياسة ووجاهة لنعلم أن الله أعطاهم ذلك ابتلاء لنا ولهم ، كما قال الله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : ٤] ، قال سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، ولذا قال النبي ﷺ : « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْغِنَى وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ » [١] ، فهناك فتنتان يُفتن الناس بهما ، فتنة الغنى والسعة ، وفتنة الفقر والضيق ، ومن الناس من يفشل في كلا الامتحانين ، فمن الأغنياء بل أكثرهم يطغون كما قال تعالى :

---

(١) رواه البخاري (٦٣٧٦) ، ومسلم (٥٨٩) ، وأبو داود (١٥٤٣) ، وابن ماجة (٣٨٣٨) ، وأحمد (٢٣٧٨٠) .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦-٧] ، لأنه رأى نفسه مستغنيًا ونسي فقره ، وهو ليس غنيًا في الحقيقة ، بل إذا تأمل الإنسان نفسه تبين أنه وُهِبَ وجُعِلَ له ، ولم يكن عنده ذلك فإن الإنسان يولد فقيرًا قطعًا ، وقبل ذلك هو أفقر وأفقر كما ستأتي الآيات .

وهناك من إذا كان في الفقر ينسى ؛ مع أن الفقر قد يكون وسيلة من أكثر وسائل تقريب العبد إلى الله ﷻ ، فإن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، والنبي ﷺ ذكر فضل الزهد في الدنيا وفضل الانشغال بمرضات الله ﷻ عن جمع حطام الدنيا ، حتى بوب أهل العلم في فضل الفقر والفقراء ، فذلك يدلنا على أن الغنى والفقر كلاهما ابتلاء من الله ﷻ .

وقضية الغنى والفقر تشغل كل العالم لا أقول بعض العالم ، كل الناس مشغولون بقضية الأرزاق والأموال والتفاوت فيما أعطي البعض ، دون أن يتذكروا أن الله الذي

قسم ، ولذلك نجد أن الصراع دائم مستمر على زخرف الدنيا ، وعلى المال فيها ، وعلى الرياسة ، وعلى الشهوات ، والناس يُدفعون دفعًا ليل نهار من خلال الإعلانات والترغيبات في أن ينالوا نصيبهم من الدنيا ، وإلا فإنهم لا يعيشون ، يوهمون بأنهم إذا لم يَحصُلوا على السيارة الفاخرة ، والمحمول ، والقصر المنيف ، وإذا لم يأكلوا أفخر الأطعمة المعدة سلفًا ، وإذا لم يعيشوا حياتهم بهذه الطريقة فإنهم لا يعيشون حتى تصور الناس أن أدنى التفاهات ـ لا أقول الكماليات ـ هي من ضروريات الحياة وأساسياتها التي لا يحتملون العيش بدونها ، ولذلك هم يسيرون إلى عبودية المال وإلى من يعطيهم ذلك المال في ظنهم ، وبالتالي يباع كل شيء بعَرَضٍ من الدنيا ـ نسأل الله العافية ـ ، لذلك إذا استحضروا أن الله الذي جعل ، وأن الله الذي قسَم الأرزاق ، وأن الله الذي وهب ﷻ ، كان ذلك دافعًا إلى أن نلجأ إليه هو ونصمد إليه سبحانه ، ونرغب فيما عنده ونرهب مما عنده ، ولا يكن

أكبر الهم ومبلغ العلم هو الدنيا ، بل يكون أكبر هم الإنسان مرضاة الله ﷻ ، ومبلغ علمه في معرفته ومعرفة شرعه ، ومعرفة ما أمر به سبحانه وما نهى عنه .

قال ﷻ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ ، يعني أثمرت ثمرها ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ ، أي لم تنتقص منه شيئًا ، أخرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئا ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ ، كان هناك نهر يجري بين أشجار الجنتين فهناك الماء الدائم الذي يسقى منه هذا الزرع وهذه الأشجار .

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ ، قيل إنه كان له مال ، قيل ساعة نضوج الثمار ، كأن المال هنا الثمر بمعنى الثمار الناضجة ، أو أنه كان له مال ، وهذا ابتلاءٌ من الله ﷻ أن يكون الإنسان بتلك الحال .

قال ﷺ : ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ، جملة من الأمراض ظهرت في هذه الكلمة وهي في الحقيقة تدل على نفسية مليئة بالخبث أفرزت عبر سلسلة من التفكير بطريقة معينة هذه الكلمات ، ولو تأملت حال أكثر العالم لوجدت أن هذه الأمراض منتشرة أعظم انتشار ، وموجودة في القلوب وعلى الألسنة ، وفي السلوكيات والأعمال .

﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ ، هو الذي بدأ الحوار ، فهو ينشئ الحوار ليبدي ما في قلبه من الكبر والعجب : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا ﴾ ، ذاك مرض إبليس ، الذي يقول ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ ، مرض الإعجاب بالنفس ومرض الكبر الذي يمنع وجودُ ذرة منه في القلب دخولَ الجنة ، قال النبي ﷺ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ »[1] ، فالكبر والإعجاب بالنفس مرده إلى

(١) رواه مسلم (٩١) واللفظ له ، وأبو داود (٤٠٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) ، =

كثرة التفكير فيها عند الإنسان وتقديم الأنا ، ليست كلمة أنا - التي يقول عنها كثير من الناس : (أعوذ بالله من كلمة أنا) - ليست مذمومة على إطلاقها حتى نتعوذ بالله منها حتى في سياق الكلام العادي ، وإنما (أنا) المذمومة التي فيها الإعجاب ، التي فيها الغرور ، التي فيها التكبر على الناس ، وكثرة النظر إلى ما عند الإنسان دون أن ينظر إلى فضل الله عليه ﷻ ، ولذلك قد تكون تلك هي العين التي يصيب الإنسان بها نفسه ، فإن ذلك من أسباب زوال النعمة كما قال النبي ﷺ : « الْعَيْنُ حَقٌّ » [1] ، وليست باللزوم تكون بمعنى الحسد ، فإن العين يمكن أن تقع من نوعين من الناس : العائن الذي يحسد ويحقد ويتمنى زوال النعمة ، فينظر بعينه إلى نعمة الله على أخيه مع تمني زوالها ، فهذا

وابن ماجة (٥٩) ، وأحمد (٣٩٠٣) .

(١) رواه البخاري (٥٧٤٠) ، ومسلم (٢١٨٧) ، وأبو داود (٣٧٨٩) ، وابن ماجة (٣٥٠٧) ، وأحمد (٢٧٤٦٥) .

المشهور في تفسير العين ، ونوع آخر يغفل عنه كثير من الناس وهو أن الإنسان قد يَعِينُ نفسَه وأهلَه ومالَه ، وذلك إذا نظر إليهم نظرة الإعجاب دون أن يبارك ودون أن يعرف أن الأمر بمشيئة الله ، ودون أن يستحضر في قلبه أن ذلك محض فضل من الله ﷻ ، وربما كان ذلك من أسباب زوال النعمة ، يحرمه الله هذه النعمة لأنه تكبر بها .

قدر المرء

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ هذا مرض آخر وهو أنه ينظر إلى الكمال من خلال المال ، فهو ليس معجبًا بنفسه ومتكبرًا فقط بل عنده أن الكمال الإنساني هو بالمال وكثرة الولد والحشم والأتباع والجنود والمُعِينِينَ له الداخلين في طاعته .

وهذا ميزان مختل لمقياس الكرامة والإهانة ، هذا ميزان فاسد أكثر الناس يستعملونه فيقولون : (يقاس الرجل بمقدار ما معه من مال) ، فالناسُ عندهم بالأموال فإذا لم

يكن الإنسان عنده مال فذلك الحقير الضعيف المطرود المبعد ، والذي عنده المال هو المسموع الكلمة المقبول ، المفتوحة له الأبواب ، الذي يسعى كل الناس إلى إرضائه .

ولابد أن نحذر على أنفسنا من ذلك سلبًا وإيجابًا ، بمعنى أننا لا نسعى لأن نكون من أصحاب الدنيا ، وسلبًا بألا نعظم أهل الدنيا إذا كنا ندعو الناس إلى طاعة الله ، فلتكُنْ دعوتنا للغني والفقير سواء ، وليكن اهتمامنا ربما بالفقير المقبل على الله ﷻ أعظم من اهتمامنا بالغني المعرض المتكبر .

عاتب الله نبيه ﷺ في ذلك حتى استقر ذلك الميزان في نفسه وفي نفس المؤمنين جميعًا ، فارتفع مَنْ أَمَر الله برفعه من أهل التقوى والإيمان ، وخفض من أمر الله بخفضه ولو كان من أهل المال والرياسة والوجاهة ، أنزل الله ﷻ عليه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ

تخشى ﴿٩﴾ فأنت عنه تلهى ﴿١٠﴾ كلا إنها تذكرة ﴾ [عبس : ١-١١] ، انظر إلى هذا الأمر ، لأن كثيرًا منا قد تختلف طريقة حواره وخطابه بين الغني والفقير ، ويعْظُم جدًا إقباله على الغني ، ويتعامل مع أهل الفقر والمسكنة بغير ما أمر الله ﷻ ، ومن دعاء ﷺ الذي علمه إياه ربه : « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي ، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ** » [1] .

فقول صاحب الجنتين ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ ، بالإضافة إلى الكبر فهو اختلال للموازين في مسألة المال والأكثر تبعًا والأعز نفرًا .

قال ﷻ : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ ، حين دخل الجنة دخلها ظالمًا لنفسه لأنه متعزز بغير الله وبغير

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٥) ، وأحمد (٢١٦٠٤) وصححه الألباني في جامع الترمذي (٣٢٣٥) .

طاعته ، متعزز بكثرة النفر والمال وبالإعجاب بالنفس والكبر ، وتَلفُظُه بذلك محاولة لتحقير غيره ، وكثير من الناس ربما يتكلم بل ويُسَخِّر الألسنة لكي تنادى بذلك ، ولكي يقال فلان عنده كذا ، وقد يكتفي برؤية الناس كذلك الأبهة والخروج في الزينة ، كما فعل قارون ، بل ربما كان الخروج في الزينة أكثر دعاية ، فهو يحب أن يمشي في المواكب ليتكلم الناس عن ماله ، وعن خدمه وحشمه وأتباعه .

كما قال ﷻ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص : ٧٩] ، فالمركب الفاخر والبيت الفاخر والخروج في الزينة وحوله الأتباع والأعوان لكي ينظر الناس ، مرض شديد عبر المشارق والمغارب قد أصيب به أكثر الناس إلا من رحم الله وهذا من الظلم ؛ فالذي ظلم نفسه قد تفاقم

الإعجاب والكبر في نفسه وتفاقمت رؤية كمال النفس وغناها حتى وصل به الحال إلى ظن استغنائه عن الله ، وأن جنته قائمة بذاتها وأنه لا يحتاج إلى شيء ، ولو كان هناك احتياج فهو يستطيع أن يشتريه لأنه غني ، وعنده من المال ما يقتضي ويلزم أن تكون معه الدنيا والآخرة معًا ، ما أكثر من يظن أنه مادام قد أعطي الدنيا فإن الآخرة قد أعطيت له وأنها أيضًا في جيبه ، لأنه عَظَّم المال ، وجعل قضية العز والكرامة بناءً على المال والأتباع ، كما قال ﷻ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر : ١٥-١٦] ، كان هذا الذي تفاعل في نفسه ، حتى قال الله في الرد على هؤلاء قال : ﴿ كَلَّا ﴾ ، ليس هذا هو مقياس الإكرام والإهانة ، هذا الرجل ظن أنه يستحق الجنة ، ولابد منها في الآخرة لو كانت هناك آخرة .

قال تعالى : ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ

ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ ،
كان هذا كفرًا من عدة أوجه :-

منها : ظن الاستغناء عن الله ، ونسيان العبد فقر نفسه ، فالإنسان إذا نسي فقره إلى الله وظن أنه مستغن عن الله فقد كفر بالله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ، والذي ظن أن ماله قائم بنفسه ، وأن قوته ثابتة ، وأن ملكه ثابت ، وأن هذه الأمور ستظل إلى مالا نهاية ، أو إلى أن يموت هو ويخلفه مَن بعده مِن ذريته ، فإن ذلك نوع من الكفر بالله ونوع من الشرك كما وصف نفسه هو بعد ذلك حيث قال : ﴿ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ ، ولم يثبت في الآيات أنه كان يعبد أصنامًا ، ولم يُرْوَ في السنة حديث صحيح يُثبت ذلك ، فأي نوع من الشرك كان عليه هذا الرجل ؟ هذا الرجل عَبَد الشيطان الذي أمره بهذا الكفر ، وعبد المال والثمر الذي عظمه هذا التعظيم ، وهذه عبودية يغفل عنها كثير من الناس ، مع أن النبي ﷺ قد صرح بها

حيث قال عليه الصلاة والسلام : « **تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ** » (١) ، وإذا شيك فلا انتقش : أي إذا دخلت في قدمه شوكة فلا أخرجت بالمنقاش .

هذه العبودية على درجتين : عبودية شرك أكبر وعبودية شرك أصغر لأن أكثر من يفسر الحديث يذكر عبودية الشرك الأصغر فقط ، ويقول هذه عبودية مجازية ، والصحيح أنها تشمل النوعين على حسب ما يؤدي إليه حب المال والرغبة فيه وتعظيمه ، فإن كان حب المال يدفعه إلى أن يكفر بالله من أجل المال ـ أو هو مستعد لذلك ـ لو أعطي مالًا لكفر أو لو أعطي منزلة ووجاهة عند الناس لكفر ، كمن يُوَطِّن نفسه على ذلك ، بمعنى أنه عازم على أنهم لو أمروه بالكفر لكفر ما دامت الوظيفة تقتضي ذلك ، أو ما دام الرضا ممن يعلونه

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) واللفظ له ، والترمذي (٢٣٧٥) ، وابن ماجة (٤١٣٦) .

يقتضي ذلك ، لأنهم هم الذين أعطوه هذا الوضع ، وأعطوه هذه المكانة ، وهذه الرياسة ، وهذا الملك ، وربما كانت الشهوات الأخرى بهذه المنزلة كما بَيَّن النبي ﷺ نوع الفتنة في آخر الزمان ، قال : « **بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا** »[1] ، يكفر فعلًا لأنه باع دينه بعرض من الدنيا فهذه عبودية شرك أكبر إذا كان حبه للمال يصل إلى هذا الحد ، وأنه مستعد لبيع دينه حتى قبل أن يبيع بالفعل فقد باع ، قد عَبَد المال ، وعَبَد الثمار ، وعَبَد الجنات والحدائق والرياسة ، وعَبَد الشهوة .

وأما في النوع الثاني فإنه إذا كان حبه للمال يدفعه إلى أن ينال من الحرام وينفقه في الحرام لكن لا يبيع دينه بالكلية من أجله بمعنى أنه ليس مستعدًا إلى أن يشرك بالله أو يكفر به من

(١) رواه مسلم (١١٨) ، والترمذي (٢١٩٥) ، وأحمد (٧٩٧٠) .

أجل الدنيا ، ولكنه مستعد لأن يعمل المعصية من أجل أن ينال شهوات الدنيا وهذا شرك أصغر ، وعبودية المال ، أو القطيفة ، أو الخميصة ، أو الوجاهة والمنزلة ، أو الشهوة ، أو الهوى ، على هذين نوعين أيضًا : الشرك الأكبر حين يقدم هذه الشهوات على دينه ويبيع دينه من أجلها ، والشرك الأصغر يكون حاله أنهم لو عرضوا عليه أن يكفر لرفض ، ولو أعطوه كذا وكذا فلا يكفر . ولكن لو عرضوا عليه الحرام لينال نصيبًا من الدنيا لَقبِل ، وهذه العبودية التي هي شرك أصغر خطوة على الطريق إلى الشرك الأكبر ، ولو تعود الإنسان على عبودية المال لهذا الحد ربما وصل به إلى أن يعبده من دون الله عبودية الشرك الأكبر ، وبالقطع والجزم أن عبودية الدرهم والدينار ليست بأن يقول الإنسان أنا أعبد الدرهم والدينار أو يقول إنه يركع ويسجد لهما ، ولكن كثيرًا من الناس رغبتهم في المال تؤدي بهم إلى أن يتركوا دينهم من أجل ذلك ، وهم بالقطع لا يقولون : لا إله إلا هذا المال ،

فقضية العبودية لا يلزم فيها أن يسمي ما يعبد إلهًا أو يسمي نفسه عبدًا له ، بل يكفي أن يحقق العبودية فعلًا ، بحيث إذا فعل ذلك صار عبدًا ، ما دام قد بلغه عن الله وعن رسوله ﷺ ما يبين له ما هو عليه ، فالله ﷻ جعل المال ليكون خادمًا للإنسان ، أن يكون نعلًا في قدميه ليقضي به حوائجه وأغراضه ، ولكن كثيرًا من الناس خلع النعلين من رجليه ووضعهما فوق رأسه تاجًا وجعل هذا المال الذي جُعِل ليخدمه سيدًا مخدومًا ، وجعل نفسه خادمًا له ، تابعًا له ، فهذا ظلم وربما كان شركًا ناقلًا عن الملة على حسب حاله كما بيّنّا في التفصيل .

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ، وهذا هو الاستغناء عن الله ، فقد ظن أنها ستستمر إلى الأبد ، ما دام الماء موجودًا والثمر قائمًا والزرع ممتازًا والأرض جيدة ، وأكثر الناس على ذلك ، الأسباب تشغلهم وينسون أن الله الذي قدر هذه الأسباب ، وينسون أن الأمور بيده في كل لحظة ، فجريان الماء هذا

أليس بقدرة الله ، ولو مَنَع سبحانه الماء من السماء لما نزل في الأنهار ، نحن عندما نفتح الصنبور نجد الماء ينزل ، وننسى الرحلة الطويلة التي سارتها هذه القطرات من الماء لحظة ما كانت في السماء إلى أن نزلت من سحب إلى جبال إلى وديان إلى أن صارت في هذا النهر إلى أن وصلت إلينا بعد رحلة طويلة لا نملك نحن منها إلا المرحلة الأخيرة ، وفي الحقيقة لا نملكها عند التأمل ، ولكنْ قبل ذلك بالجزم وبالقطع لا يملكها أحد ، فنحن لا نملك أن نُنزِل المطر من السماء ، ولا نملك أن نجعل الأخاديد في الأرض لكي تسير في هذا الاتجاه ، ونحن ربما نُعدِّل جزءًا من هذا النهر ، وإذا فعلنا ذلك يكون إنجازًا عظيمًا ، أما أننا نملك الأرض حقيقة فلا والله ، لا نملك شيئًا إنما هذا كله ملك الله تبارك وتعالى ، وهكذا في كل الأمور الأخرى ، فمثلًا هذا الإنبات الذي يقع من البذرة أنحن الذين نزرع هذه البذرة ؟ نحن فقط نضعها في الأرض ، لكن هل نحن الذين ننبت النبات ؟ ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا

تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣-٦٧] ، فظللتم تقولون أصابنا الغرم وحرمنا ثمرة عملنا ، والإنسان ينسى دائمًا البدايات وينشغل بما في أيديه من الأسباب ، والانشغال بالأسباب من أعظم الأمور خطرًا ، فلابد أن نُرجع الأمور إلى بدايتها إلى فضل الله ﷻ الذي ساق إليك هذا ، وأعطاك ومَنَّ عليك .

قال تعالى عن هذا الرجل : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ ، كفر من نوع آخر وهو الشك في القيامة ، وكلا الأمرين الاستغناء عن الله والشك في الآخرة كفر وشرك بالله .

قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ ، هذا كفر ثالث لأنه يظن أن الله ـ لا بد ـ سيعطيه ، وفرض على الله أن يعطيه ، ولماذا هذا الظن الباطل ؟ لأنه معه مال يشتري به الجنة ، فهو يظن أن الجنة تشترى بالمال أيضًا ، كما يظن كثير

من الناس أن أمر المال به كل شيء وهو عصب الحياة ، والآخرة عندهم كذلك ، هذا الرجل لم يكن مُنكرًا لوجود الله ، ولم يُنكر أن الله خلقه ، لنعلم أن قضية التوحيد أعظم من مجرد إثبات وجود الله أو إثبات ربوبيته لنا بمعنى الخلق والرزق ، هذا الرجل يقول : ﴿ **وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى** ﴾ ، إذًا فهو عنده احتمال أن يُرد ، ولكن هذا الاحتمال مرجوح بالنسبة له ، والراجح عنده أنه ما يظن الساعة قائمة ، ويتكلم في أمور عظيمة جدًا يتكلم فيها بالظن بالاحتمال ، مثل كثير من الناس يجلسون مجالس المقاهي والجلسات التي يتكلمون فيها ، كل منهم يدلي برأيه ويقول بمجرد الظن في أخطر أمور الدين والإيمان ، وقد قال النبي ﷺ : « **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ** » [1] ، كثير من الناس يتكلمون في أخطر القضايا بغير علم بل بمجرد الظن ما دام عنده مال ، والناس

(١) رواه البخاري (٥١٤٤) ، والترمذي (١٩٨٨) ، وأحمد (٧٧٩٨) ، ومالك (١٦٨٤) .

مقرر عندهم أن من عنده مالًا وسلطانًا يكون من حقه أن يتكلم في كل قضية ومن حقه أن يُسمع له ، قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [يونس : ٣٦] .

وقوله : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ ، دليل على أنه يقر بوجود الله ويقر بأن الله خلقه ولكنه يُلزِم ربه أن يعطيه في الآخرة : ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ . قال له صاحبه وهو يحاوره : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ ﴾ ، ذكرنا من أين كفر مع أنه يقر بأن الله الخالق ، فإن قضية الإيمان أعظم من ذلك .

قضية التوحيد ليست مجرد الإقرار بوجود الله أو بأنه الخالق ، بل لابد أن تتوجه له بالعبادة وأن تفتقر إليه ربًا وإلهًا ، تفتقر لله ربًا لتعلم أن ما بك من نعمة فمن الله ، وتفتقر إليه في كل لحظة تلحظها بعينيك ، أو نَفَسٍ تتنفّسه برئتيك ، أو حركة ، أو سكنة ، نعم والله فالإنسان لابد أن يستشعر الفقر فهذا الفقر حقيقي وتام ومعلوم بالضرورة فعلًا عند

التأمل ، لأن بداية الإنسان ـ عندما كان ترابًا ثم عندما كان نطفة ـ تدل عليه ، أين كان سمعه وبصره وقوته وماله وحشمه وعياله وخدمه ، أليس كل منا مر بهذه المرحلة ؟ مرحلة النطفة وهي مرحلة أساسية في خلقنا ، فكل إنسان مر بهذه المرحلة ويمر بمرحلة التراب قبل ذلك ، أين هذا الإنسان اليوم ؟! الذي سيكون غنيًا بعد خمسين سنة أو ستين سنة أو سبعين سنة أين هم الآن ؟ كثير منهم من الممكن أن يكون الآن نطفة في صلب أبيه أو في رحم أمه ، وربما بعضهم كان في المرحلة الأسبق مرحلة التراب والماء ، لم يتكون بعد ولم يصبح نطفة ، والأغنياء الذين سيكونون بعد ستين سنة ماذا يملكون الآن ؟ لو قلنا أغنياء اليوم ورؤساء اليوم من ستين سنة ماذا كانوا ؟ من سبعين سنة من ثمانين سنة ؟ على الأقل كان الواحد منهم كان طفلًا يلعب ، قبل ذلك من مائة سنة لم يكن منهم أحد موجودًا نهائيًا فسبحان الله ، فلابد للإنسان أن

يمر بهذه المرحلة فلابد إذن أن يشهد هذا الفقر ، فهو فقر اضطراري رغمًا عنه لكن أكثر الناس لا يشهدونه في لحظة البداية ولحظة النهاية ، فالإنسان لحظة البداية فعلًا فقير فقرًا ذاتيًا ، لابد أن يمر بهذه المرحلة الضعيفة جدًا العاجزة من حياته ، ثم يوهَب ـ بلا إرادة منه ولا من أبيه ولا أمه ـ السمع والبصر والعقل واللسان ، فلو أن إنسانًا ولد أعمى و كان الأمر بيده أو بيد والده أو والدته لكانوا أعطوه البصر ، وكذلك الأصم ، والمشلول ، والذي بلا عقل ، كم من الناس يولدون ونشاهدهم بهذه الصفات ، لا شك أننا نجزم بوجود نوعية ممن ابتُلوا بذلك ، فمن الذي منعهم ذلك ، ومن الذي كان بيده أن يعطيهم ، العالم كله لو أراد أن يعطيهم لما استطاع ذلك أحد ، فهذه علامات الفقر الظاهر ، وأكثر الناس ينسون هذا الفقر ، ثم بعد أن يولد الإنسان ماذا تبطش يده ؟ كيف تمشي رجله ؟ ماذا يتكلم لسانه ؟ عندما يولد يبدأ العطاء

تدريجيًا فيُعطى قدرة ويعطى إرادة ، إرادته الأولى في أن يلتقم ثدي أمه ، ليس عنده رغبة إلا في ذلك ، فلو أَعْطَيت له مالًا في يده فهو لا يعرفه على الإطلاق ، وعندما يكبر قليلًا يبدأ فيتكلم ثم يبدأ فيعرف قيمة حب التملك وقيمة المال ، ويقول : أنا أريد مالًا لأشتري به كذا ، وبعد ذلك يريد مالًا أكثر ليشتري الأشياء التي يريدها ، ويبدأ حب المال ينمو معه ويبدأ تملّكه وتبدأ قدراته تزداد ، فلم يكن يعرف كيف يفكر ، فتعلم كيف يفكر ، ولم تكن عنده قوة بدنية فأصبحت عنده قوة بدنية ، وهذه الأمور بالتأكيد بدأت من الصفر إذ هو فقير ، وستنتهي إلى الصفر جزمًا لحظة الوفاة أيضًا ، فكذلك هو فيما بين ذلك فقير قطعًا ، لكن كما ذكرنا أكثر الناس لا يشهدون هذا الفقر ، هذا فقر إلى الله ربًا ﷻ .

وهناك نوع آخر أهم ، وهو الافتقار إلى الله إلهًا معبودًا ، تشعر أنك تحتاج إلى أن تركع له وتسجد له ، تحبه وتخافه

وترجوه ، وترغب فيما عنده ، هذه حاجة أشد من حاجة البدن إلى الطعام والشراب والهواء وأشد من حاجته إلى المال وأشد من حاجته إلى القوة التي يعطاها ، نعم ، القلب يحتاج إلى الله إلهًا معبودًا كما أن الجسد يحتاج إلى الله ربا خالقًا رازقًا ، لابد أن نفتقر إلى الله بنوعي الفقر : الفقر إلى الله ربًا والفقر إلى الله ﷻ إلهًا ، فإذا افتقرنا إلى الله إلهًا مَنَّ علينا بعبوديته ، ومَنَّ علينا بلذة الإيمان ، وحلاوة العبودية له ﷻ ، فالقلب الجائع إذا لم يعطَ نصيبه من الطعام والشراب المناسب له ، ظل متألما أشد الألم ، أشد من ألم البدن إذا كان جائعا وعطشان ، والقلب يجوع ويعطش ويمرض وربما يموت ، وكثير من الناس تموت قلوبهم لأنهم أجاعوها ، جعلوها تصوم عما خلقت له وعما به حياتها وهو التعبد لله ﷻ فتمرض ثم تموت ، لأنها لم تُعطَ نصيبها من حب الله والخوف منه ورجائه والتوكل عليه ﷻ ، فعند ذلك أصابها ما أصابها ، وكلما تألم واشتكى وقال : أنا متعب أعطاه

المسكرات وأعطاه زيادة في الشهوات لينسى ما خُلِقَ له ، نسأل الله العافية .

قال الله ﷻ : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ ، لا تنسَ فقرك ، فسبب كفر هذا الرجل نسيان فقره ، فذكره الرجل المؤمن الواعي الداعية إلى الله ﷻ ، ولولا أن دعوته دعوة مباركة لما ذكرت وحفظت في كتاب الله سبحانه ، ولما خلّدت بذكر هذا الرجل ، فهي دعوة عظيمة ، إذًا فمن أصول الدعوة أن نُذكّر الناس بلحظات البداية ولحظات الافتقار إلى الله ﷻ وحاجتنا إليه وحاجتنا إلى فضله ومنته .

وقد سوانا الله رجالًا وسوى النساء نساءً ، وما سوينا شيئًا من أنفسنا ، أأنت سويت طرف الأصبع بهذه الطريقة حتى سويت هذه الخطوط المعروفة بالبصمات ؟ أأنت الذي أخرجت هذا الظفر الذي يقي هذا الإصبع ؟ أأنت الذي

تحرك المفصل بإرادتك ؟ أأنت الذي تجري الدم في عروقك ؟ أأنت الذي تأمر القلب فيدق ؟ وتأمر الكلية فتعمل ؟ والله لا نفعل شيئًا من هذا ، بل سُوِّينا حقًّا والله : ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ ، الله ﷻ الذي فعل ذلك وحده .

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ ، أي لكنْ أنا أقول : هو الله ربي ، لا أقول بمقالتك ، ولا أنكر فقري إلى الله ، ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ ، وبالرغم من أن الثاني يقول : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ ، لكنه يقولها بلسانه ولم يستحضر حقيقتها في القلب .

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ ، فليس عنده شرك في الربوبية ، ولا في الألوهية ، والربوبية هنا ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ ، على إداركه لحقيقة فقره إلى الله ﷻ ، وأن الله الذي خلقه ورزقه وهو الذي يَستحقُّ أن يُعبدَ وحده .

﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ ، قضية الشرك لابد أن نلاحظها هنا جيدًا ، لأنها ـ كما ذكرنا ـ ليست فقط بأن يسمي

غير الله آلهة ، يمكن أن يكون هناك أصنام يعبدها بالإضافة إلى ذلك وهذا سبيل الشيطان لإيقاع الناس في الشرك ، لكن القضية التي جعلته مشركًا في المقام الأول هو أنه تكبر وأعجب بنفسه ، وعبد الشيطان ، وعبد الهوى ، وعبد المال وأشرك بالله ﷻ ، ولذا أكمل المؤمن دعوته إلى الله ﷻ لهذا الرجل ، فقال له : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ ، أي هلا إذا دخلت جنتك : ﴿ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ، لابد أن تؤمن بصفة الله وأن هذه مشيئته النافذة وقدرته الشاملة وقوته سبحانه لا حول ولا قوة إلا به .

كنز من كنوز الجنة

فقوله : ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ كنز من كنوز الجنة كما سماه النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا

بالله »[1] ، ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، أي هذا ما شاء الله ، هذه مشيئته ، فتنسب الفضل إلى الله ، ولذلك إذا أعجبك شيء من مالك أيها المؤمن فقل ما علّمك القرآن : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ، ولا تظن أن القوة بك أو منك ، أو أن القوة في هذا المال ، يجب أن تعلم أنك فقير ، وأن هذا المال أو هذه الثمار أو هذا المتجر أو هذه الوظيفة أو هذه القوة في العمل ... ليست بك ولا منك وإنما من الله ﷻ ، فالقوة بالله لا قوة إلا به ؛ بمعنى أن الله جعل القوة في العباد ولكن هو الذي يملكها سبحانه ، فما يجب أن نؤمن به : أن الله هو القوي ، وأن القوة له جميعًا ، وأنها صفته ﷻ ، القوة والقدرة ، وهو جعل في العباد قوة وقدرة وهم لا يملكونها ، فالله يملك القوة التي وهبها لخلقه كلها ، ويملك القدرة التي

(١) رواه البخاري (٤٢٠٥) وفي روايته : « ألا أدلك على كلمةٍ من كنز من كنوز الجنة ... » ، ومسلم (٢٧٠٤) وهذا لفظه ، وأبو داود (١٥٢٦) ، والترمذي (٣٣٧٤) ، وابن ماجة (٣٨٢٤) ، وأحمد (١٩٠٧٨) .

أعطاهم إياها كلها ، فإذا أعطى عبدا قوة أو قدرة فذلك فضل الله ﷻ ، وإذا حرم عبدًا من ذلك فذلك عدله ولا يظلم ربك أحدًا .

وإذا استحضرنا ذلك استحضرنا عجز العباد جميعًا فلم نسعَ لإرضائهم ، ولا لتجنب سخَطهم إلا إذا كان في ذلك رضا الله سبحانه وتجنب سخَطه ، وأما أن يكون همنا رضا الناس وسخط الناس فذلك الذي لا يرضى عنه الله ، وهذا من أسباب سخط الله ﷻ ، قال رسول الله ﷺ : « **مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ الله عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ الله عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ** » [1] ، لا قوة إلا بالله ولا تحول من حال إلى حال إلا بالله ، فلا حيلة ـ وهو تفسير آخر للحَوْل ـ لا حيلة للإنسان ، لا حول إلا به ﷻ ، فالإنسان لا يملك قوّته ولا يملك

(١) رواه ابن حبان وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٥٠) .

الأرض التي يسير عليها ، ولا يملك الهواء الذي يستنشقه ، لا يملك شيئًا إلا أن يعينه الله ﷻ ، حتى لا يملك تفكيره وتدبيره وتحيله على مصالحه .

همة المؤمن ... إلى أين ؟

وقول المؤمن : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ، إذا رأيتني كذلك ـ وهو حقيقة ـ ولكني أرغب فيما هو أهم : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ ، فعسى ربي أن يؤتيني ـ أي في الآخرة ـ خيرًا من جنتك : ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ ، أي عذابًا من السماء .

لماذا تمنى المؤمن ذلك ؟ لماذا رجا ذلك ؟ رجا ذلك لا حقدًا ولا حسدًا كما يتمنى كثير من الناس زوال النعمة من أجل أن يُعْطَوا مثلها ، لا ، إنما يتمنى زوال ذلك كسرًا لكبر ذلك الرجل المتكبر ، وحرمانًا له مما ظنه سببًا لقوته

وعزته وغناه عن الله ﷻ ، فتمنى له ذلك لينكسر ، وهذا أمر يحبه الله ، كسر الجبارين المتكبرين ، وإرادة الله في كسرهم ماضية ، كما قال الله سبحانه : ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٦] ، الله يريد كسر الجبارين لأنهم ينازعون الله في صفاته ، قال الله ﷻ في الحديث القدسي : « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعِزَّةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أُلْقِيهِ فِي النَّارِ »[1] ، أو « من نازعني فيهما عذبته » .

و﴿ حُسْبَانًا ﴾ ، أي عذابًا من السماء ، إما مطرًا مزعجًا مغرقًا أو صاعقة من السماء ، وغالب الصواعق تكون مع المطر الكثير : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا ﴾ ، الصعيد : الأرض المستوية ، فبعد أن كانت مليئة بالأشجار المرتفعة تصبح أرضًا

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داود (٤٠٩٠) ، وابن ماجة (٤١٧٤) ، وأحمد (٧٣٣٥) واللفظ له ، ولفظ مسلم : « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذّبته » .

مستوية ﴿ زَلَقًا ﴾ : أي تنزلق فيها الأقدام ملساء لا تثبت فيها قدم ، أو بلا نبات كالجُرُز : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ ، أي بلا نبات تزول عنها النباتات التي فيها بالكلية .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ ، يُذكره بأن القوة لا يملكها ، وهو لا يملك السماء ولا المطر ولا يملك الماء الذي يسقي به الأرض .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ ، أي غائرًا في الأرض بعيدًا لا يستطيع نيله ، فالأرض من الممكن أن تشرب هذا الماء ، والله هو الذي أجراه بهذه الطريقة ، وإلا فهناك تربة تجعل الماء ينزل فيها إلى أسفل حتى نعجز عن الوصول إليه كما قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : ٣٠] ، أرأيتم إن أصبح ماؤكم غائرًا في الأرض فمن يأتيكم بماءٍ ظاهر على وجه الأرض تستطيعون الوصول إليه .

قال : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ ، دعا عليه المؤمن بذلك لأنه تكبر ، ومشروع أن يُدْعَى على

الظلمة والمتكبرين بأن يكسرهم الله لأن الله يحب ذلك .

سبب البلاء

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ ، بأمواله أو ثماره ، وقع ما كان يخوفه به المؤمن ، ونزل عليها إما حسبان من السماء وهذا هو الأظهر لأنها زالت مرة واحدة ، وأما غور الماء في الأرض فربما يبقى مدة كما يقول ابن كثير رحمه الله .

كان أن وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إنزال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عز وجل : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لم يقلب كفيه ندما على معصية الله ، وإنما على ما أنفق فيها ، ظل على تعلقه بالمال يقلب كفيه حسرة وندمًا على الأموال التي ضاعت .

﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ ، يتمنى ذلك

لكي تبقى له الجنة ، فهناك من الناس من همه الدنيا لا يريد غير ذلك ، فقوله ذلك ليس توبة صادقة لأنه إنما هو حزين على الحياة الدنيا ، وهو متحسر لا لأنه عَبَد غير الله وأشرك بالله ويريد أن يتوب إلى الله من ذلك ، بل مشكلته أن الجنة قد فُقِدَت ، فلابد أن تكون نية الإنسان وإرادته هي فيما عند الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ ﴾ ، كان يتعزز بالمال وكان يتعزز بالولد ويقول : ﴿ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ، يتعزز بالنفر فذكر الله مصير المال ثم ذكر مصير النفر : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، لم يكن له عشيرة وولد وكان يعتز بهم ويفتخر بهم فلم يستطيعوا نصره ولم يستطيعوا إعزازه .

﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ، في موقفه ذلك لم يكن منتصرا بنفسه ولا بغيره .

﴿ هُنَالِكَ ﴾ ، أي في هذا الموقف الذي حل به عذاب الله

فلا منقذ له منه ، قرأ بعض القراء بالوقف على ﴿ هُنَالِكَ ﴾ والأكثر يقف على رأس الآية ثم يقرأ : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، والولاية بالفتح مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ٦٢] ، فعلى هذا فالمعنى أن الله هو المولى الحق ﷻ الذي إليه مرجع العباد جميعًا وبيده الأمر كله ، وعند ذلك هم يقرون ويخضعون له ﷻ لكن لا ينفع ذلك بعد نزول العذاب ، كما قال الله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : ٨٤-٨٥] .

والقراءة الثانية : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوِلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، بمعنى الحكم لله الحق ﷻ والقولان متلازمان في الحقيقة فالله ﷻ هو الذي يحكم ، وهو الذي يتصرف في عباده بالإعزاز ، والإذلال ، والإغناء ، والإفقار ، والتعذيب ، والتنعيم بما يشاء سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

عُقْبًا ﴾ ، فالله ﷻ يثيب المؤمنين أعظم الثواب ، وخير عقبا : يجعل العاقبة للمؤمنين العاملين بطاعته خير عاقبة بقدرته ﷻ ، ونسأل الله ﷻ أن يجعل عاقبتنا خير عاقبة وأن يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

فهرس

الشركة الفنية للطباعة
ت: 7771039 القاهرة